ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 16 غشت 2022

الرغبة في علم الاجتماع

عبد الكبير الخطيبي
ترجمة: مراد الخطيبي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2022
All rights reserved © 2022

الرغبة في علم الاجتماع

عبد الكبير الخطيبي

ترجمة: **مراد الخطيبي**[1]

1- مترجم وباحث في الدراسات الترجمية وتحليل الخطاب.

ملخص:

المقال مأخوذ من مؤلف عبد الكبير الخطيبي الصادر سنة 2008 عن منشورات الاختلاف بفرنسا والموسوم بـ «الناسخ (الكاتب) وظله Le scribe et son ombre». ويعدّ هذا المؤلف سيرة فكرية وأدبية يلخص فيها المفكر والأديب عبد الكبير الخطيبي أهم المحطات التي تميز بها مساره الدراسي والأكاديمي والعلمي. يقع المقال الأصلي في سبع صفحات تمتد ما بين الصفحة رقم 31 إلى الصفحة 37.

الرغبة في علم الاجتماع

عند عودتي إلى المغرب سنة 1964، وجدت بسرعة نفسي أمام وضعية صعبة وحرجة. المشاركة في تأسيس مدرسة ما بعد كولونيالية جديدة في علم الاجتماع بالمغرب، بعيدا عن أي نزعة استشراقية، كانت هي غايتي الأولى. كانت في الواقع، غاية سياسية. أما الغاية الثانية، فكانت تكمن، برفقة زملائي المغاربة والأوروبيين، في بناء معرفة ومعرفة حقيقية حول المجتمع المغربي الذي كان يقاوم بشدة التحليل النقدي، الدولة والمجتمع معا.

في عام 1966، توليت إدارة معهد السوسيولوجيا بالتحدي (تحدي طموح)، دون أن أفكر جيدا في المهمة الشاقة التي كانت تنتظرني. بعد أربع سنوات من النشاط المتواصل، تم دمج المعهد بشكل تعسفي، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

بصحبة الفقيد بول باسكون وسوسيولوجيين آخرين، قمنا بتكوين طلبة أصبح البعض منهم باحثين جيدين مثل عبد الله حرزني، عبد الله حمودي، أحمد زوكاري. أجرينا تحقيقات حول الشباب القروي، حول النخب، حول مواضيع مهمة أخرى: الطبقات الاجتماعية، التخلف، التحولات الاجتماعية، حالة الفساد (الرشوة) في الإدارة والمجتمع المدني.

فترة ممتعة، بلا شك، وغنية بأفكار فعالة تقريبا أو طوباوية. التأسيس، الخلق، الإنشاء، إعطاء مساحة لحرية العقل ولممارسته في الفكر السوسيولوجي. هكذا كانت، يبدو لي، قناعتنا؛ قناعة يسارية، بالمعنى السياسي.

أحد الروابط الفكرية لهذه المرحلة، كانت هي النشرة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب التي تم إنشاؤها سنة 1933، والتي أقوم بتنسيق تحريرها منذ 1966، مع مجموعة متعددة الاختصاصات في مجال العلوم الإنسانية. هل أحتاج إلى التأكيد أن هذه المجلة قد قدمت لثلاثة أجيال من القراء (أساتذة، وباحثين وخصوصا الطلبة) وثائق تشكل مرجعا في المادة!

***

عندما كنت تلميذا في المستوى الثانوي، اكتشفت علم الاجتماع في كتاب كوفيليي Cuvillier المدرسي. بعد نهاية تكويني في باريس وعند عودتي إلى المغرب، تم توظيفي بصفة أستاذ باحث بجامعة محمد الخامس بالرباط. كانت أمنيتي هي المشاركة في توضيح مشروع مجتمع ما بعد كولونيالي في طور التحديث، كان مشروعا سياسيا بكل الأشكال.

كيف تصبح عالم اجتماع، بمعنى محلل يدرس الموضوع الجماعي في مجتمع محدد، في مرحلة من تاريخه؟ ممارسة هذا الفرع من المعرفة لا تقوم فقط على التجربة الأكاديمية. يجب أن يتوفر الأكاديمي المبتدئ على مؤهلات خاصة، حساسية محايثة للذات الجماعية، لتنوع تشكيلاتها: المجتمعات المحلية الأساسية، أنظمة التصنيف والتسلسل الهرمي، التراث والتقاليد التي تقيد الفرد... الكثير من العلامات والأطر وأشكال الحياة التي تنسج النسيج الاجتماعي أو تمزقه، وهي عملية إنتروبيا وتغييرات يجب التقاط إشاراتها.

أستعمل هذه الكلمات المتخصصة من أجل نفض الغبار المترسب في ذاكرتي المتحركة. هذه المعرفة التي قمنا بتخزينها تتغذى، بالطبع، على هذه النظرية أو تلك وكذلك على نقلها، وهو قناع فردي بقدر ما هو فكرة حول موضوع جماعي.

تتجذر هذه المعرفة في الفجوة غير المتطابقة بين تجربة عالم الاجتماع والتراث الاجتماعي الذي شكّله، والذي يحمله داخله مثل التلسكوب؛ التلسكوب يتكيف مع هويته الأكثر حميمية.

لذلك، بعد عودتي إلى بلدي الأصلي بعد ست سنوات طويلة من التحصيل العلمي، كان علي تحديد موقعي، وتحديد المكان الذي كنت أتحدث منه: التدريس، البحث، كيف يمكن ترجمة هذه الرغبة؟

دعونا نلخص هنا تعاقب الحقائق؛ إليكم شهادة مباشرة سجلتها زكية داود مؤخراً. اسمحوا لي أن أقتبس منها ما يلي:

«عبد الكبير الخطيبي، عالم اجتماع شاب، يبلغ من العمر 28 سنة، يعمل بالنشرة الاقتصادية والاجتماعية قبل ولوج المعهد الجامعي للبحث العلمي (CURS)، المركز الوطني للبحث العلمي المغربي (CNRS)، والذي كان لا زال يدير في ذلك الوقت معهد السوسيولوجا الذي تم تأسيسه في بداية الستينيات، بتوجيه ومساعدة من اليونسكو، ويطالب في أعقاب ذلك بإصلاح قانون العقوبات والوضع القانوني للمرأة لتأجيل سن الزواج ومراجعة نظام الطلاق. ستثبت التوقعات السكانية المنشورة أنها صحيحة حتى عام 1995، عندما يبدأ المنحنى الأسي في الانخفاض.

سيتم إغلاق معهد السوسيولوجيا سنة 1969، ليتم تعويضه بداية بمعهد العلوم الاجتماعية التطبيقية قبل أن يختفي نهائيا. اشتبه للنظام بأنه يقوم بتكوين الأرواح الشريرة. المغرب الجديد ليس في حاجة إلى طيور الفأل السيئ المتمثلة في علماء الاجتماع. بعد إغلاق معهد السوسيولوجيا، تم تعويض علم الاجتماع بعلم اللاهوت (الثيولوجيا). نحن نغوص في التقليد، التقاليد الاجتماعية يتم تشجيعها بصورة كبيرة.»

يجب أن أشهد نيابة عني، دعنا نتبع بعض الخطوات. يفترض علم الاجتماع ممارسة الملاحظة، والاستماع وتشكيل الفكر التحليلي والنقدي. العلم والسياسة مرتبطان. مثلا، السوسيولوجيا والإثنولوجيا في المرحلة الكولونيالية. كان علي أن أبدأ بتقييم الوضع، قبل الذهاب بعيدا. وهذا القصي الذي كان علينا أن نعيش فيه ونعمل فيه وربما نبتكر، سرعان ما تبين لنا محدوديته، بول باسكون، كريكوري لازريف وأنا أيضا. وجود عائق كبير وضعنا في قبضة مجتمع كان يبدي مقاومة قوية لروح التحليل والنقد. حظر. صد. صمت شديد جدا.

من أين نبدأ؟ كنا أيتام مجتمعنا، مثلنا مثل أي فرد مريب. تم أخذنا كرهائن بسبب سوء فهم مستمر، ارتياب مبالغ فيه (شنيع) إزاء مكانة علم الاجتماع، خاصة بعد أحداث مايو 1968 بفرنسا. قامت الدولة بإنشاء لجنة عهد إليها تتبع التأثيرات على الجامعة المغربية. من هنا أتى إغلاق معهد السوسيولوجيا سنة 1970 (وليس سنة 69)، علما أن هذا المعهد كان يتردد عليه طلبة هادئون، هادئون جدا، طلبة لم يكونوا يختلطون بالمضربين ويأملون في الحصول على تكوين وعلى شهادة. بسلام، في وسط هذه الحديقة التي يحيط بها سور المعهد، كوميديا سياسية تشهد على هذه المقاومة للروح التحليلية الضرورية لتنمية بلد ما، أي بلد، ما الذي كنا نهابه في المقام الأول؟

ومع ذلك، قمت شخصيا وبمعية عدة زملاء فرنسيين ومغاربة وآخرين، منذ سنة 1967 بتقييم الوضع.

على طول المسار، قمت ببعض التمارين المنهجية: الأبحاث الميدانية، تحليل المضمون (المحتوى)، بسيكودرام المجموعات...في نفس الوقت، وضعت تصميما لدراسة حول الطبقات الاجتماعية في المغرب، أنظمة التكوين الطبقي والهرمي. في قمة التسلسل الهرمي، توجد الدولة المخزنية والسلطة، حزام النقل بين الطبقات ومجتمعات القاعدة الشعبية، الجهات والقبائل.

إنه تسلسل هرمي خاضع لمرجعيات «ثابتة»: الدين والطاعة، وهو مفعل إلى اليوم بواسطة سياسة اندماج مستمر، انطلاقا من مركز القيادة.

كل هذا كان واضحا للعيان في جميع الأوقات. ما كان أقل وضوحا هو المؤشرات الضمنية للأشياء التي تتغير والأشياء الأنثروبية.

لحسن الحظ، كنت في كثير من الأحيان حساسًا لقوى الصمت والقمع التي تؤثر في المجتمع بقدر ما تؤثر على تطوري الخاص. وهكذا، وفي وقت قصير، استبدلت ممارسة علم الاجتماع الكلي بطريقة أخرى لالتقاط الإشارات التي تصورتها هذه التغييرات: في السكن، والسلوكيات، والمثاقفة، ومزيج بين اللغة والكلام ... الكثير من التحولات التي غالبًا ما ندرك منها فقط النقاط العمياء. بصمات. تشوهات. الأسطح

المسطحة. علم العلامات سوف يساعدني فيما بعد على تحديد الرهان. لكن قبل أن أمارسه، كنت قد توجهت في السابق نحو فرع كان أقرب إلي: علم اجتماع الأدب، كما لو كنت أحاول توحيد رغبتي المشتركة في المعرفة والخيال بأي ثمن. كانت الرواية المغاربية (أطروحة السلك الثالث) هي النتيجة الأولى، التي صدرت سنة 1969 لدى الناشر والكتبي-المفضل المنتمي للعالم الثالث، فرانسوا ماسبيرو، والذي أصبح كاتبًا كامل الأهلية.

كان الإنتاج النموذجي لبول باسكون في صميم علم الاجتماع ما بعد الاستعماري هذا. كان باسكون أستاذا- باحثا، زيادة على كونه موظفا حكوميا، كيف تمكن من أن يصبح مثقفًا عضويًا؟ كان يمتلك قوة غير عادية، يعمل بصفة دائمة، ولكن بشكل هادئ، وينام فقط خمس ساعات. كان بول ينتمي إلى الأرض. ولد عام 1932، وعاش مثله مثل مواطن أصلي، ويتحدث الفرنسية والعربية والبربرية. لم يكن بحاجة إلى استدعاء مستشار أو مترجم عندما يباشر دراساته وأبحاثه في الميدان.

جاء استقلال المغرب مع اقترابه من سن الرشد واستمر نشاطه الفكري المكثف حتى وفاته المأساوية. كان مستقلا في عمله، يمتلك روحا حرة ونارية. كان مزدوجا: تجاه عائلته - الفرنسيين في المغرب - وتجاه المجتمع المغربي في حد ذاته. أنا معجب كثيرا بالصرامة الشديدة التي كان يتميز بها هذا المفكر الوحيد على مفترق الطرق. ما هو هذا الفكر؟ الماركسية، بلا شك، حيث تم تكييفها مع البنى الاجتماعية للبلد وأدركت تعدديته وتكوينه، والتعايش والخلاف غير المتكافئ بين عدة مكونات: قبلية، ثيوقراطية، ميدالية، مخزنية، رأسمالية. التركيبة مقنعة ومكشوفة بثلاث سمات رئيسة: التوفيق بين المعتقدات والتعددية والتطور المتباين.

لا أعرف ما إذا كان أحد يكتب سيرة بول، سيكون مفيدًا للأجيال الشابة. إذا كنت أشهد بدوري على هذا المصير النموذجي، فذلك لأنه مأساة تبحث عن كاتبها. كيف يمكن الحديث عنه عندما علم بالاختفاء الغامض لطفليه نادين وجيل في يناير 1976 وسط الصحراء؟ وأنه هو نفسه، في عام 1985، لدى عودته من دراسة في موريتانيا، تعرض لحادثة سير أدت إلى وفاته؟

اختفاء رفيق في الطريق ثمين للغاية بالنسبة إلي، بالنسبة إلينا، لدرجة أنني أدرك الآن أن الحداد دائمًا ما يكون جزئيا، ولا ينتهي بأيّ حال من الأحوال. تعود إلي بعض الصور: الطيف، والابتسامة الخفية، والمصافحة الخالصة، ورقة حزينة نسبيا على مستوى النظرة...

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2022

جميع الحقوق محفوظة © 2022